

إيديولوجيا المعارضة للخلاف الكلامي

الأستاذة مختارية مقدم

قسم الفلسفة - جامعة معسكر

لقد كان لمحنة خلق القرآن رد فعل معاكس، لاستثارة أهل السنة، ودفعهم إلى الدخول في ميدان الجدل الديني للتصدي لتحديات المعتزلة وذلك بعد أن كانوا يتخرجون من الخوض في أي نقاش أو محاجة حول العقيدة. وتمخض رد الفعل السني عن ظهور الحركة الأشعرية في العراق، والماتريدية (على يد أبي منصور الماتريدي) في الأقاليم الشرقية، والطحاوية (على يد أبي جعفر الطحاوي) في مصر. وتكاد تدور هذه الحركات الثلاث في فلك واحد، هو مواجهة النزعة العقلية للمعتزلة¹. وقدر لحركة الأشعري أن تغطي عليهما وأن تنتشر في العالم الاسلامي شرقا وغربا. والذي مهد لقيام هذه الحركة بحق محنة خلق القرآن؛ التي اعتبرت حدا فاصلا بين الغلو والاعتدال في الدراسات الكلامية². ويعزى أكبر الفضل في قيام هذه الحركة إلى أبي الحسن الأشعري الذي صاغ

1 أبو ريان محمد علي، تاريخ الفكر الفلسفي في الاسلام، دار النهضة العربية، بيروت، ط2، 1967، ص 196، 198.

2 مذكور إبراهيم، في الفلسفة الاسلامية منهج وتطبيقه ج2، دار المعارف، القاهرة، (دط)، 1983، ص ص 47، 46.

علم الكلام السني في شكل العلم المنظم¹. والذي عرف بمذهب أهل السنة والجماعة الذي عم في بلاد العراق وخراسان والشام وبلاد المغرب².

وفي وسعنا استهلال التحليل التالي بقول الشيخ " أبو زهرة " : في كتابه (المذاهب الاسلامية) حيث سنلفي في هذه المقولة الموجزة نظرة إجمالية متفحصة للدور الذي لعبه الخطاب الاعتزالي، والحالة التي سادت جراء سيادته في الوسط الاجتماعي عامة، والفكري على الخصوص؛ وحيث سنلمح أيضا بوادر قيام خطاب جديد؛ يعمل على مناهضة الخطاب الاعتزالي. يقول الشيخ "أبوزهرة" : " اشتدت حملة المعتزلة على الفقهاء والحدثين، ولم يسلم من حملتهم فقيه معروف أو محدث مشهور، فكرههم الناس وصاحب ذكرهم البلاء والخن. وتأثرت العداوة حتى نسي الناس خيرهم، فنسوا دفاعهم عن الاسلام وبلاءهم فيه، وتصديهم للزندقة وأهل

الأهواء. نسوا هذا كله، ولم يذكروا لهم إلا إغراءهم الخلفاء بامتحان كل إمام تقي ومحدث مهدي. . . " ويقول أيضا : " وظهر في آخر القرن الثالث رجالان امتازا بصلق البلاء، أحدهما أبو الحسن الأشعري ظهر بالبصرة، والثاني أبو منصور الماتريدي ظهر بسمرقند، وقد جمعهما مقاومة المعتزلة على اختلاف بينهما في القرب من المعتزلة والبعد عنهم"³.

ومن خلال ما تقدم ذكره، نلمع إلى أنها بداية ظهور إيديولوجيا معارضة لإيديولوجيا السلطة المتمثلة في الفكر المعتزلي، هذا الذي مارس ضغوطا وعمل على تصفية فكر الآخر ممهدا بذلك لولادة حركة أو حركات جديدة تنمو في فلك إيديولوجي خاص؛ وإن كان مختلفا؛ إلى أنه موحد في رغبة القضاء على الفكر السلطوي - إيديولوجيا السلطة - الذي غاب عن ناظره، أن ما من محاولة إثبات الوجود على حساب الآخر إلا وكانت خاتمته من فعل يديه بتدبير عقله. فالآخر أبدا يرضى لخطابه الفناء. إذ يعمل

1 نفس المرجع، ص201.

2 البوطي محمد سعيد رمضان، العقيدة الاسلامية والفكر المعاصر، مطابع مؤسسة الوحدة، جامعة دمشق، (دط)، 1982. ص77.

3 المرجع السابق، ص70.

جاهدا على إرسائه وإذاعته بين الأوساط العلمية؛ دون التواني في رميه في أحضان العامة لتبنيه؛ فليس أفضل منها مؤيدا بقوة التحدي والمواجهة. وإن كانت العامة أحيانا لاتع حقيقة ما تناشد الدفاع من أجله.

وكانت بداية أفول حركة الاعتزال والتراجع بسيطرة علم الكلام السني على يد الخليفة المتوكل؛ الذي تنكر للمعتزلة وأمر بإحراق كتبهم ومصادرتها، وتعقب زعمائهم في كل مكان¹.

إن هذا التحول في تبني إيديولوجيا جديدة والتخلي عن إيديولوجيا السلطة السائدة، له ما يبرره من الناحية السياسية. وهو ما أشار إليه الأستاذ "محمد عابد الجابري" في : " أن الانقلاب الذي حصل في عهد المتوكل لم يكن من إنجاز أهل السنة بل كان انقلابا قام به هو محاولة منه لكسب تأييد الشارع الذي كان يسيطر عليه

أهل السنة؛ وذلك بهدف مواجهة تهديد القواد العسكريين الأتراك. . . "2. بالتالي ندرك أن السلطة السياسية لها حاجة لدى السلطة العلمية توجهها إلى اختيار إيديولوجيا دون أخرى. وفي هذا التقريب لخطاب على حساب آخر ما يبرره من المصالح التي تقع من عين السلطة موقعا حسنا. ولربما حتى، يكون - هذا الاستحسان - الموقع الضامن لاستمرارية السلطة السياسية ذاتها.

لكن الأهم من هذا التأييد الذي ستشد به السلطة الحاكمة عضدها؛ هو تثبيت وترسيخ الخطاب الجديد الذي سيعمل بدوره على إرساء آلياته في إنتاج المعرفة. إذ أن المعركة كانت أوسع من الخلافات الفقهية أو الخلافات الكلامية، لأنها كانت معركة صراع على صياغة قوانين الذاكرة الجمعية للأمة، أي قوانين تشغيل تلك الذاكرة وصياغة

1 أبوريان محمد علي، تاريخ الفكر الفلسفي في الاسلام، ص198.

2 أبو زيد نصر حامد، النص، السلطة، الحقيقة، الفكر الديني بين إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1997. ص 111

الآليات التي على أساسها تنتج المعرفة¹. مهما كانت الغايات التي تنشدها السلطة السياسية من وراء الاحتفاء بخطاب ديني معين؛ فلن تكون إلا بحثاً عن سيادة أو شرعية تتكئ عليها لتبرير أعمالها وموقفها - إلا في حالة واحدة، هي أن تكون السلطة حقيقة تسعى لتحقيق الحكم العادل من خلال كتاب الله. في هذه الحالة لن تميز بين الخطابات بتمرير مصالحها عبرهم، بل تعمل على جمع الشمل بما لها من سلطان - إذاً يحيا الخطاب العلمي خادماً للسلطة السياسية معادياً لباقي الخطابات، في محاولته فرض نفوذه السياسي بالقوة. في الوضع عينه سيفقد جزءاً من علميته وحريته، التي تخص المنافسة التي يعرف بها الروح العلمي، وأيضاً، من حيث أنه سجين إيديولوجيا يقوم على إرضائها بشكل أو بآخر. فمهما كان من أمر السلطة السياسية فهي لا تدعم إلا ما هو في صالحها قائم على خدمتها.

إذا اعتبرت بدايات تشكل خطاب معارض (بكسر الراء) إعلان عن مشادة كلامية ستقوم بين الطرفين، فإن المرغوب في معرفته حين يتم الاعلان عن تشكل الخطاب المعارض (بكسر الراء) لا على أنقاض الخطاب السابق، بل من صلب الخطاب السائد - المعارض (بفتح الراء) - ستكون أكثر جمالية لوضوح ينم عن تحد من الصميم. وإدراك لنواحي الجدل والحجاج في الخطاب السائد وتبنيها والعمل بها من طرف الخطاب الجديد. على هذا النحو ستحتفل مدارة الخطاب الجديد - المعارض (بكسر الراء) - بتواشج مضمّر حيناً وصريح حيناً آخر لمستويات عدة من الخطاب المعارض (بفتح الراء). وللخطاب الأشعري فيما ذكر أعلاه صيت لا يغفل.

أخذ على الأشاعرة أنها حركة موفقة، حاولت أن تقف موقفاً وسطاً بين طرفين بين النقل والعقل، بين السلف والمعتزلة². إذ اختط الأشاعرة في جميع مسائلهم نظرة وسطى بين الاعتزال وأهل السلف، فسموا بأصحاب الطريقة الوسطى. فقد أفرط

1 أبوزيد نصر حامد، نفس المرجع، ص18.

2 مذكور إبراهيم، في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه ج2، ص46.

المعتزلة في استخدام العقل حتى صادموا به قواطع الشرع وأخضعوا النقل للعقل واحترزوا من التشبيه فوقعوا في التعطيل¹. وهم في ذلك قد ذهبوا بعيدا في تقدير العقل والاعتماد عليه حتى أهملوا النقل، وتركوا الحديث، وتحاملوا على الحداثين وكذبوهم. وأولوا المشابهة من آي القرآن تأويلا لم يقرهم أهل السنة عليه². وما كان عليه أهل السنة؛ أنهم تشبثوا بالنقل ولم يقيموا للعقل والجدل وزنا في الأمور الدينية. فكانت الشقة بين الفريقين بعيدة، وكان من الضروري تقريب وجهتي النظر وتوحيدها في مجرى واحد يرضي الجميع؛ وهذا ما فعله الأشعري³.

وإذا كان الأمر كذلك - بمعنى التوفيق - فلنا أن نعتبر الأشعرية حركة جمعت أطراف الجانبيين من التعارض القائم بينهم، محاولة في ذلك خلق سبيل للتشابك والتراضي؛ فشكلت ذاتها من خلال هذا التوفيق. مع هذا فهي لم تسلم من الانزياح لسلطة النص على حساب سلطة العقل.

ولا غرور في أن الأشاعرة قد جعلوا أساس توسطهم بأن اتخذوا النقل منطلقهم؛ وأصبح العقل خادما للنقل⁴. فهل يعتبر التوسط بين الطرفين بأن يرجح أحدهما على الآخر؟ وإذا تم ذلك فهل نقول "توسط" أم "ميل"؟ ويشير في هذا الشأن الأستاذ محمد علي أبوريان "إلى تأرجح الأشعرية بين الموقفين السني والعقلي؛ وكيف أنها انتهت إلى موقف سني يحتفظ بالمنهج العقلي. إذ سلكت الأشعرية طريق المعتزلة باستخدامهم للتأويل، وقد عمدت إلى هذا الأسلوب مخافة الوقوع في التشبيه. وكذلك لمواجهة خصومهم المعتزلة المعطلة للصفات الإلهية؛ وذلك في نطاق حركة الكلام السني دون التوسع في استخدام المنهج العقلي كما فعلت المعتزلة⁵. وقد ارتفع جدل أهل السنة إلى

1 أبوريان محمد علي، تاريخ الفكر الفلسفي في الاسلام، ص212.

2 جار الله زهدي، المعتزلة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط6، 1990 ص211.

3 المرجع نفسه، ص ص 210، 211.

4 أبوريان محمد علي، تاريخ الفكر الفلسفي في الاسلام، ص 212.

5 المرجع نفسه، ص ص 217، 218.

صعيد المعتزلة، وقارعوها حجة بحجة ودليلا بدليل نظرا لاستثمار أبي الحسن الأشعري - مؤسس المذهب - علمه بأصول الاستدلال البرهاني ومبادئ الفلسفة اليونانية في تنظيم الأسلوب الجدلي للخطاب الأشعري¹.

نشير من خلال ما تم عرضه إلى حضور جوانب عديدة لخطابات سابقة على وجود الخطاب الأشعري عملت على تشكيله وبلورته، من خلال اتخاذه لها ديناميكية قائما عليها، مؤسسا لاستراتيجية في إنتاج المعرفة؛ غير منحل أو معتمد في وجوده على غيره من الخطابات. وفي تعالق الخطاب الأشعري مع الخطاب الاعتزالي - عبر طرق الاستدلال والبرهنة - هو في هذا يكتسب صفته - أي الخطاب الأشعري - وخصوصيته لينتهي إلى بلورة ذاته.

ولعل هذا دافع لما اتخذ على الأشاعرة أنهم لم يجدوا سبيلا أبدا إلى التخلص من أثر المعتزلة فيهم. لأنهم كانوا مضطرين إلى معالجة نفس المسائل التي عالجها المعتزلة قبلهم، وأن يصدروا فيها أحكاما توافق السنة ولا تبعد كثيرا عن قول المعتزلة. يقول " ابن الجوزي " : " إن الأشعري ظل دوما معتزليا "، السبب الذي جعل الحنابلة لا يرضون عن الأشعرية، ودفعهم إلى مقاومتهم بنفس القوة التي قاوموا بها المعتزلة².

ورغم ذلك التعالق القائم بين المعتزلة والأشاعرة؛ الذي كثيرا ما يثار ضد الأشاعرة، إلا أن أبا الحسن الأشعري قد ناهض عقلانية المعتزلة وأسس بديلا عنها سلطة " النقل ". ورفض مبدأ المعتزلة في التحسين والتقبيح بالعقل مؤكدا هيمنة " الشرع "؛ ليؤسس لسلطة النص في مواجهة تيارات أخرى تحاول أن تؤسس سلطة العقل، دون أن تهدر مجال فاعلية سلطة النصوص³. ولكن أليس القائم على تأسيس سلطة النص لا يقوم اعتماده هذا إلا بالاعتداد بسلطة العقل في تشييد هذا التأسيس، وإلا كيف له يتم ذلك؟ إنه يتخذ العقل أساسا في التدليل على سلطة النص.

1 اليازجي كمال، معالم الفكر العربي في العصر الوسيط، ص 154.

2 جار الله زهدي، المعتزلة، ص 266.

3 أبوزيد نصر حامد، النص، السلطة، الحقيقة، الفكر الديني بين إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة، ص 18.

وفي وسعنا أن نلمح إلى أن ما ساعد على انتشار المذهب الأشعري، تأسيس المدارس النظامية في بغداد ونيسابور، وكانت تبشير بهذا المذهب بعد أن اعترف به رسمياً في منتصف القرن الخامس للهجرة¹. كما عملت المدرسة النظامية وهي من أشهر المؤسسات العلمية في الإسلام والتي أسسها نظام الملك وزير ألب أرسلان السلجوقي في بغداد على مقاومة التعليم الشيعي ونشر مذهب أهل السنة، ومناصرة المذهب الأشعري². ما يبرز لنا الدور الذي تضطلع به المؤسسات المدعومة سياسياً في مساعدة وتضعيد أهمية خطاب ما وترسيخ جذوره في الساحة العلمية.

الثأر الإيديولوجي:

جدير بالذكر ههنا، أن الاختلاف بين الأطراف المشكلة للسلطة العلمية بتباين مناهجهم ونتائجها يتحول إلى خلاف؛ فصراع، وأحياناً إلى ثأر وانتقام. فكما كان للمعتزلة أن فرضت مذهبها وبسطت سلطتها بالقوة على غيرها؛ كذلك فعل من بعدها كل من كان له حظ في إرضاء السلطة السياسية أو كانت السلطة السياسية بحاجة إليه بتقريبه منها، أن قام على التنكيل بالمعتزلة ورجالها. فبعد أن انتصر المحدثين في عهد المتوكل، أخذوا ينتقمون من المعتزلة بأيديهم وعلمهم، وأخذوا يجرحون المعتزلة تجريحاً شنيعاً، بل ويجرحون من امتحن فأقر. وأخذ " أحمد ابن حنبل " يشرح الناس فيحكم على هذا بالضعف، وهذا بالقوة؛ وكان من أكبر أدواته في الميزان القول بخلق القرآن³.

وبعد ما حل بالمعتزلة جراء تحول وجه السلطة عنها ومحاربة المحدثين لها، وبعد أن تتابعت الضربات وتوالت النكبات، أصبح القول بالاعتزال يحدث في الغالب سرا

1 أبوريان محمد علي، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، ص 213.

2 البلازجي كمال، معالم الفكر العربي في العصر الوسيط، ص 68.

3 أمين أحمد، ضحى الإسلام ج 3، ص ص 199، 200.

ويتطلب شجاعة كبيرة وجراءة شديدة. ومن كان معتزليا رجع عن الاعتزال أحيانا، وتستر أحيانا؛ إلا من كان جريئا لا يتصل بالدولة من قريب أو بعيد¹.

إن مثل هذا المأخذ - التصدي للمعتزلة - ينطبق على أهل السنة حنابلة وأشعرية، الذين شارك بعضهم في الانتقام من المعتزلة في العصور اللاحقة بينما سكت بعضهم الآخر ولم يروا فيما تعرض له المعتزلة بعد انقلاب المتوكل عليهم من محن طالت أجسامهم وأرواحهم وكتبهم وفكرهم، بل وذكرهم، لم يروا في ذلك منكرا يجب التنديد به إن لم يستطيعوا تغييره. كيف هذا؛ وقد فعل الثأر والانتقام فعلة في مثل هذا الموقف². فكما اشتط المعتزلة في تكفير مخالفيهم، كذلك فعل الأشاعرة، إذ أدخلوا الفرق المعارضة لأهل السنة في عداد المارقين أو الزنادقة³، مستغلين الفرصة لأخذ الثأر الفكري الايديولوجي⁴.

إن المخرج في الأمر، المخير قبلا، كيف أخذ المعتزلة والأشاعرة على أنفسهم تصفية بعضهم البعض؛ وهم صانعي الفكر وحاملي لوائه. أما وهم في كنف السلطة السياسية فلنا القول؛ إنه الخبيث الذي تولد هذه الأخيرة من الحقد والديسيسة تبثه في من تواليهم؛ للقضاء على الآخر بمثيله.

إذ يعمل رجل السلطة السياسية على استخدام ثمرة جهد المثقف وتوظيفها لتكريس سلطته وإعطائها مشروعية⁵ ليكون ناطقا باسمها ومحققا لمصالحها وآمالها. وما محنة خلق القرآن التي نادت بها الدولة أيام المأمون والمعتصم والواثق باسم الفكر الاعتزالي - الذي تشرب فيما بعد ويلات هذه المسألة - إلا تغطية لمصلحة الحكم ودفاعا عنه تحت ظل الفكر الديني. هي حملة بحث مستمر لهيبة الحكم ودوامه، بحث عن الرفض للسلطة

1 أمين أحمد أحمد، ظهر الاسلام ج4، ص ص 8، 25.

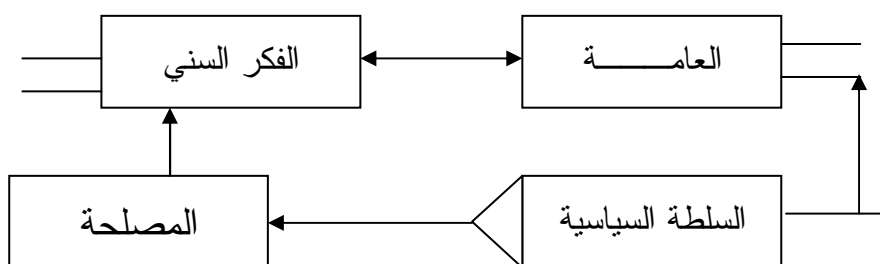
2 عابد الجابري محمد، المثقفون في الحضارة العربية الاسلامية، محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد، ص115.

3 أبوربان محمد علي، تاريخ الفكر الفلسفي في الاسلام، ص212.

4 المرجع الأسبق، ص15.

5 أبوزيد نصر حامد، الخطاب والتأويل، ص15.

الحاكمة باسم مسألة خلق القرآن. استمرارية السلطة السياسية هاجس مؤرق دفع بهم إلى البحث في كل الأمصار والأزمان للإيقاع بمعارضيتهم باسم الفكر الديني، محاولة لدمج فصهر جميع التيارات الفكرية المتباينة في مسار تفكيري واحد للسلطة السياسية. وما أن تغيرت مصلحة السلطة السياسية حتى أسرع في تأييد خطاب جديد على يد المتوكل الذي ولى وجهه عن الخطاب الاعتزالي نظرا لعدم جدوى مواصلة تبنيه. كانت عين المتوكل على العامة المساندة للخطاب السني، الرافضة للاعتزال، فأسرع في تركية خطاب " قوى المعارضة السنية والحنبلية التي كانت تهيمن على الشارع وذلك أملا في التخلص من نفوذ القواد العسكريين الأتراك. . . " ¹. قد شكلت العامة وميلها لأهل الحديث والفقهاء دافعا لاستبدال الفكر الايديولوجي للدولة، وللمصلحة في هذا الشأن دور أساسي أيضا. ولنا أن نثلها على النحو التالي:



العامة والفكر السني في فلك واحد، عين السلطة عليهم بناء على مصلحتها التي ستقود لاختيار الخطاب.

يغدو بنا على هذا النحو، أن نلتفت إلى أن سيادة الأفكار وهيمنتها ما زال يتم بأدوات القهر والقمع السلطوي. فكما حاول المأمون فرض فكر المعتزلة على العلماء والفقهاء بقوة السلطة وسيف السلطان؛ حاول غيره قتل فكر المعتزلة وفرض فكر خصومهم ². مع أن الخطابات المنتجة في سياق ثقافي حضاري تاريخي ليست خطابات مغلقة

1 عابد الجابري محمد، المثقفون في الحضارة العربية الإسلامية، محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد، ص 110.

2 أبوزيد نصر حامد، النص، السلطة، الحقيقة، الفكر الديني بين إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة، ص 69.

أو مستقلة عن بعضها البعض. فآليات الاستبعاد والاقتضاء التي يمارسها خطاب ما ضد آخر تعني حضور هذا الآخر - بدرجات بنيوية متفاوتة - في بنية الخطاب الأول¹.

وبعد كل الذي مر بالخطابين في محاولة كل منهما نشر سيادته وبسطها على الساحة الفكرية عامة، حسم الأمر لصالح النقل ضد العقل، وبذلك تحددت قوانين إنتاج المعرفة في الثقافة العربية على أساس سلطة النصوص، وأصبحت مهمة العقل محصورة في توليد النصوص من نصوص سابقة². لأن الخطاب المشيد خطابي في مجمله³.

1 المرجع نفسه، (من المقدمة)، ص8.

2 المرجع السابق، ص19.

3 العلوي سعيد بنسعيد، الخطاب الأشعري، مساهمة في دراسة العقل العربي الاسلامي، ص323.